

الفصل السادس والعشرون

فيه كتاب ذكر مشاهدة أهل المراقبة

إعلم أن مشاهدة المراقبين هي أول مراقبة المشاهدين، وذلك أن أول مَنْ كان مقامه المراقبة كان حاله المحاسبة، ومن كان مقامه المشاهدة كان وصفه المراقبة، فأول شهادة المراقب هو أن يعلم يقيناً أن لا يخلو في كل وقت، وإن قصر، من أحد ثلاثة معان، أن يكون لله عز وجل عليه فرض، والفرض على ضربين، شيء أمر بفعله، أو شيء أمر بتركه وهو اجتناب المنهى؛ والمعنى الثاني نَدْبُ حُثِّ عليه، وهو المسابقة بخير يقربه إلى الله عز وجل، والمسارعة بعمل برّ يبتدره قبل فوته؛ والمعنى الثالث شيء مباح فيه صلاح جسمه وقلبه، وليس للمؤمن وقت رابع فإنْ أُحْدِثَ وقتاً رابعاً فقد تعدى حدود الله، ومَنْ يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه، وقد أحدث في دين الله سبحانه وتعالى، ومن أحدث في دين الله فقد سلك غير طريق المتقين. ألم تسمع إلى قوله عز وجل وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً، فهل ترى بين هذين وقتاً يُجهل أو هوى كما لا ترى بين الليل والنهار وقتاً ثالثاً، فالذكر الإيمان والعلم، فهذان ينتظمان جهل أعمال القلوب، والشكر والعمل بأخلاق الإيمان وأحكام العلوم، وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح. قال الله عز وجل اعملوا آل داود شكراً. وقال واتقوا الله لعلكم تَشْكُرُونَ. وقال كما أرسلنا فيكم رسولا منكم إلى قوله فاذكروني أنذركم واشكروا لى ولا تكفرون. وقال الله تعالى ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عوتب في طول قيامه حتى تَوَرَّمت قدماه فقال أفلا أكون عبداً شكوراً، ففسر الشكر بالعمل كما فسّر الله عز وجل العمل بالشكر. والوقت الثالث هو المباح داخل فيهما، لأنه مُعِين عليهما وبه استقامة العبد فيهما.

وقد كان بعض العلماء يقول لنا في معاصى الطاعات همّ وشغل عن معاصى المخالفات، فيبتدىء العبد المراقب فينظر بيقظته في أدنى وقت، هل لله عز وجل فيه فرض من أمر أو نهى، فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه، فإن لم يجد فإنه لا يخلو من نواذب وفضائل فيبتدىء بالأفضل، فإن لم يمكن عمل في أدنى الفضيلتين، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن يومه لأمسه، ومن ساعته ليومه، ومن دنياه لأخرته، كما أمره مولاه في قوله سبحانه وتعالى ولا تتس نصيبك من الدنيا، أى لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدنيا، ولا تترك أن تأخذ نصيبك للأخرة من دنياك، وهو أن تحسن

كما أحسن الله إليك، ولا تطلب الفساد في الدنيا فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة، فيتركك الله من جزيل ثوابه الذي أعد لأحبابه كما قال نسواً الله فنسيهم، أى تركوه فتركهم، وتركهم له ترك نصيبهم منه، وتركك عز وجل لهم ترك محابهم من الآخرة، فيبتدئ العبد الفطن فيأخذ من عمره ووقته فيجعله لأخرته التى أيقن بها، ثم يأخذ من وقته أعلى ما فيه، مما يختص به الوقت ولا يوجد إلا فيه ويفوت بركة وفوت وقته، وهو أفضل ما يقدر عليه مما أداه علمه إليه، فيجعله لمولاه.

ثم إن العبد لا يخلو فى كل وقت وإن قل من أحد مقامين، مقام نعمة أو مقام بليّة، فحاله عن مقام النعمة الشكر، وحاله عن مقام البليّة الصبر. ثم ليس يفقد أحد مشاهدتين، شهود نعمة أو شهود مُنعم من حيث لا يخلو من وجود مالك وحضور مملوك، فعليه الخدمة للموجود وعليه الحضور فى خدمة المعبود. والمراقبة علامة الحضور، والمحاسبة دليل المراقبة. ويكون له أيضاً فى أدنى أوقاته وهو الوقت الثالث الذى هو لباحه وهو أدنى أحوال المؤمن، يكون له فيه مشاهدة مُنعم أو شهود نعمة، لئلا يذهب وقته هذا أيضاً فارغاً من دنياه ولا يعود عليه شيء من ذكر مولاه، أو يذكر نعمة تدله على مُنعم أو تخرجه إليه فينبغه ذلك فى عقباه، إذ العاقبة للمتقين، فإن شهد مُنعماً اقتطعه الحياء بالسكينة والوقار للهيبه، وهذا مخصوص بخصوص، وإن شهد نعمة استغرقه بالشكر والاعتبار فكان لديه تبصرة وتذكّر وهذا لعموم الخصوص. قال الله عز وجل فى وصف الأولين ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا إلى الله. وقال فى المقام الثانى ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر. وقال فى مقام الأولين قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، إلى قوله أفلا تتقون. وقال فى وصف الآخرين قل لمن الأرض ومن فيها، إلى قوله أفلا تذكرون. وقد روينا فى الأثر من صفات العاقل وحال المراقب وحشو الأوقات بما ينبغى أن تملأ به جمل ما ذكرناه من حديث أبى ذر الطويل، ولا يكون المؤمن ظاعناً إلا فى ثلاث- تزودٌ لمعاد، أو مَرَمَةٌ لمعاش، أو لذةٌ فى غير محرّم وبمعناه. وعلى العاقل أن يكون له أربع ساعات، ساعة ينجى فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فى صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فإن فى هذه الساعة عوناً له على الساعات. وفيه أيضاً ثلاث مُجملات من صفة العاقل. ومن علامة العاقل أن يكون مُقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، عارفاً بزمانه. وفى بعضها مُكرماً لإخوانه. فنول وقت المباح من الأوقات فالنوائب والحاجات تطرقه به، والفاقات تدخله عليه، فلا يتكلفه قبل وقته فيشغله عن وقته.

ثم إن العبادَ في مشاهدة الملك على أربع مقامات، كل عبد يشهد الملك من مقامه بعين حاله، فمنهم من ينظر إلى الملك بعين التبصرة والعبرة فهؤلاء أولو الأبواب الذين كشف عن قلوبهم الحجاب، وهم أولو الأيدي والأبصار الذين أقامهم مقام الاعتبار، وهذا مقام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء. ومنهم من ينظر إلى الملك وأهله بعين الرحمة والحكمة، وهذا مقام الخائفين، ومنهم من ينظر إلى الملك وأهله بعين المقت والبغضة، وهذا مقام الزاهدين، ومنهم من ينظر إلى الملك بعين الشهوة والغبطة، وهذا مقام الهالكين، وهم أبناء الدنيا الذين لها يسعون وعلى فوتها يتحسرون، فإن أعطى العبد النظر إلى الملك بعين العبارة والحكمة أدخله الملك على الملك فاستغنى به عما سواه، وإن أعطى الخائف النظر إلى الملك بعين الرحمة اغتبط بمقامه وعظمت لربه تعالى عليه النعمة، وإن أعطى الزاهد النظر إلى الملك بعين البغضة أخرج الملك عن الملك بالزهد فيه فعوّضه من قوت الملك الصغير درك الملك الكبير. ومن ابتلى بالنظر إلى الملك بعين الغبطة والحسرة أوقعه الملك في الهلكة فسلك طريق المهالك. ومن شاهد معنى خلق من أخلاق الذوات أو معنى وصف من الصفات كان مقتضاه ما يوجب الخلق أو الوصف من شهود نعيم أو عذاب. وهو مقام له في التعريف يرفعه إلى مقام التعرف، وهذه شهادة العارفين من كل ما شهوده من الأفعال التي تدل على معاني الأخلاق والأوصاف، لأنه أظهرها عنه ليستدل عليه بها وينظر إليه منها.

فأما من شهد شهوة من شهوات النفس بعين الهوى أخرجته إلى الأهواء فتخطفه الشياطين، وهوت به الريح في مكان سحيق، وتكَبَّ طريق المسالك إلى المولى التي تخرجه إلى القريب وتقعده عند الحبيب في مقعد صديق عند مليك مقتدر، فمن فاته القرب وقع في التيه والبعد فهو اليأس المغيبون الخائن المفتون الذي يكون أبداً يوماً شراً من أمسه، وغده شراً من يومه، فالموت خير له من حياته لأن حياته عن الحبيب تبعده، وبقائه عن السبيل يصده، ووجده لهواه يفقده، وظهور نفسه عليه من السوابق يقعده، لأنه إذا كان في إدبار، وكان إدباره في إقبال، فقد فاته عمره عن آخره كفوت وقت واحد وفوت شيء واحد، لأن العمر ليس مما يأتى فوته دفعة واحدة كشيء واحد، لأنه ينشأ وقتاً بعد وقت، وإنما يفوت جزءاً جزءاً على حكمة من الله عز وجل، وتمهل واستدراج منه، وقتاً بعد وقت ويوماً بعد يوم، ويستدرجه في ذلك كما يصعد الدراج في الدرج مرقاةً مرقاةً. كذلك يشغله في وقت عنه ويفرغه وقتاً آخر لغيره، ويذكره في وقت سواه ويُنسيه وقتاً آخر إياه، فشغله حينئذ كفراغه، وذكره يومئذ كنسيانه، وعلى هذا سائر أوقاته، تارة يقطعه

عنه وتارة يُضله بغيره حتى تفتنى الأيام بالفوت، وتنقضى الأوقات إلى الموت، وفي ذلك يُسبل عليه الستر ليفتّر، ويسبغ عليه النعم كيلا يعلم ، ويديم له العوافى لئلا يفتن، ويبسط له الأمل ليزداد من سوء العمل، ويقبض عنه الأجل ليقبض منه الوجّل، وينشر له الرجاء ويطوى عنه الخوف حتى يبيّغتهم فجأة من حيث أمّنهم، ويأخذهم بغتة في حال غمرتهم، كما قال ومكروا مكراً ومكرونا مكراً وهم لا يشعرون. ومن معنى ما ذكرناه قوله تعالى فلما نسوا ما نكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، أى لما تركوا ما وعظوا به وخوفوا أسبغنا عليهم النعم وأنسيناهم الشكر، فترادفت منهم الذنوب وأنسيناهم الاستغفار. ثم قال حتى إذا فرحوا بما أوتوا، أى سكنوا إلى ذلك واطمأنوا ولم يريدوا التحويل عنه ولا الاستمتاع منه، أخذناهم بغتة، أى فجأة في حين أمّنهم، وقيل بغتة بعد أربعين سنة، فإذا هم ملبسون متحيرين باهتون آيسون من كل خير.

واعلم أن العبد إذا كان بعد ساعة شراً منه قبلها، ويعد يوم شراً منه قبله ثم لم يستعّب ولم يتدارك، كانت أوقاته كلها وأيامه كيوم واحد في الشر ووقت سرمد في السوء، فكان كمن فات عمره كله كفوت وقت واحد منه، لأنه على هذا الوصف يكون فوت العمر لتراخيه وقتاً بعد وقت، وينساه شيئاً بعد شيء، ولتربية العبد بنوقاته وقتاً بعد وقت، إلا أنها في آخر الحساب ومُجمّله كيوم واحد أضاعه، فكان مثله كما قال تعالى ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وأتبع هواه وكان أمره فرطاً، وكمن كان حاله الغفلة عن الوعد والوعيد، فلما كُشِفَ عنه الغطاء حار بصره وبهت واحتدّ وبرق لمعاينة ما كان عنه غفّل، وتحسّر على ما فيه فرط، لقوله تعالى لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، قيل محدد إلى أعمالك السيئة أوثقتك، وقيل حديد إلى لسان الميزان يتوقع النقص والرجحان، وكان كمن قال تعالى في قوله وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة، قيل جاعهم الموت وهم مشغولون بأمور الدنيا، وقيل كانوا متشاغلين في شأن النساء، ويوصف من قيل له وغرتكم الأمانى، يعنى أمانى الهوى، حتى جاء أمر الله، أى قدم الموت ولم تقدّموا له شيئاً يقدّموا به عليه، فمثلهم كمن وصفه بالإفلاس، وأخبر عنه بالإياس، في قوله عز وجل حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

وقد كان أبو محمد يقول لا يبلغ العبد منازل الصديقين حقيقةً من هذا الأمر حتى يكون فيه هذه الأربع- أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهى في الظاهر والباطن، والصبر على ذلك إلى المات. وكان الحسن يقول والله ما لعمل المؤمن انتهاء بون الموت، والله ما

المؤمن الذي يعمل الشهر والشهرين والسنة والسنتين، إنما المؤمن مداوم على أمر الله الخائف من مكر الله. إنما الإيمان شدة في لين، وعزم في يقين، واجتهاد في صبر، وعلم في زهد. وكان عمر رضى الله عنه إذا تلا قوله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، يقول قد قالها الناس ثم رجعوا، فمن استقام على أمر الله في السر والعلانية، والعسر واليسر، ولم يخف في الله لومة لائم، وقال مرة استقاموا والله لربهم ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال بعض العلماء من كان طلب الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومن شغل بغيره عن نفسه فقد مكر به. وقال سفيان الثوري وغيره إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، فأفضل شيء للعبد معرفته بنفسه، ووقوفه على حده، وإحكامه لحاله التي أقيم فيها، فابتدأه بالعمل بما افترض عليه بعد اجتنابه ما نهى عنه، بعلم يدبره في جميع ذلك، وورع يحجزه عن الهوى في ذلك، ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض، لأن الفضل لا يصح إلا بعد حوز السلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال، فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد، وإلى الاغترار أقرب.

وقد تلتبس الفضائل بالفرائض لدقة معانيها وخفي علومها، فيقدم العبد النفل وهو يحسب أنه الواجب، فمن ذلك أن أبا سعيد رافع بن المعلّى كان قائماً يصلى، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه، فظن أن وقوفه بين يديّ الله عز وجل بالغيب أفضل له، فلما سلم جاءه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منعك أن تجيبني حين دعوتك، فقال كنت أصلى، فقال ألم تسمع الله عز وجل يقول استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه وهو في الصلاة ليفيده باطن العلم، أو لينظر مبلغ علمه كيف يعمل. وكان إجابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل له من صلاته لأن صلاته نافذة له، فهو مطيع لله عز وجل في الغيب باختياره، وإجابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من صلاته، لأنها فريضة عليه، فهو مطيع لله تعالى في الشهادة بإيجابه، ففضل استجابته لرسول الله صلى الله عليه وسلم على صلاته لنفسه كفضل الفرض على النفل، وقد قال سبحانه من يطع الرسول فقد أطاع الله، وقال تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، والله تعالى معكم في المكاتين معاً وهو عند الرسول عليه السلام على يقين، فعبادة الله عز وجل ههنا أبلغ في مرضاته وأثوب له في آخرته. وفي هذا الحديث دليل أن الخبر إذا ورد في أمر كان على جملة عمومه وكلية ما تعلق به حتى تخصّ السنة أو الإجماع بعض شأنه، ومن ذلك أن قول الله عز

وجل استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، أن ظاهره مقصور على الاستجابة للرسول صلى الله عليه وسلم بالإيمان وبالطاعة في أوامر القرآن لا الإجابة له في التصويت خاصة في الصلاة. وهذا هو الذي حمله أبو سعيد بن المعلى عليه وتوكله من الآية فاشكل عليه. ومثل هذا فعل عمّار في التيمم لما نزلت آية الإباحة للتيمم في صلاة الفجر وهم في سفر، فقال عز وجل فلم تجبوا ماءً فتيتموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم، ولم يكن يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم في تخصيص بعض اليد شيئاً، قال فتيتمنا إلى المناكب واستوعب جملة اليد لعموم الخطاب، حتى أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فأمرهم بالتيمم إلى المرفقين، وفي خبر إلى الزندين باختلاف الروايتين، فخص بعض اليد لذلك اختلف العلماء في تبعض اليد في المسح. وكذلك العمل فيما ورد مجعلاً أن يستعمل في الجملة حتى تخصه السنة، فمن ذلك ما روى أن رجلين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخيا في العبادة فاعتزلا الناس، فقال أحدهم لصاحبه هلم اليوم فلتنفرد عن الناس ولنزيم الصمت فلا نكلم من يكلمنا فإنه أبلغ في عبادتنا، قال فاعتزلا في خلوة وصمتا، فمرّ بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهما فلم يردا عليه السلام، قال فسمعناه يقول حين جاوزنا هلك المعتقدون المتطعمون، فاعتزلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابا من ذلك إلى الله عز وجل. ومثل ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعس ذات ليلة فنظر إلى مصباح أبيض في خلل باب فاطلع، فإذا قوم على شراب لهم فلم يدر كيف يصنع، فدخل المسجد فأخرج عبد الرحمن بن عوف، فجاء به إلى الباب فنظر، وقال له كيف ترى أن نعمل، فقال أرى والله أننا قد أتينا ما نهانا الله عنه، لأننا تجسسنا على عورة فاطلعنا عليها وقد سترها الله بوننا، وما كان لنا أن نكشف ستر الله عز وجل، فقال ما أراك إلا قد صدقت. أنفذ عنك. فانصرفنا. وفي لفظ آخر أنه قال أرى أننا قد عصينا الله ورسوله، ونهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التجسس، فقال صدقت فأخذ بيده وانصرف. وروينا نحو هذا أن عمر رضى الله عنه كان يعس ليلة مع ابن مسعود، فاطلع من خلل الباب، فإذا شيخ بين زقي خمر وقينة تغنيه، فتسور عليه، وقال ما أقبح بشيخ مثلك أن يكون على مثل هذه الحال، فقام إليه الرجل فقال يا أمير المؤمنين، أنشدك الله ألا أنصفتني حتى أتكلم، فقال له قل، فقال إن كنت قد عصيت الله عز وجل في واحدة فقد عصيته أنت في ثلاث، قال وما هي، قال قد تجسست وقد نهاك الله عز وجل عن ذلك، وتسورت وقد قال الله عز وجل وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، وبخلت بغير إذن وقد قال الله عز وجل لا تدخلوا بيوتا

غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها، فقال عمر صدقت، فهل أنت غافر لى ذلك، فقال غفر الله لك، فخرج عمر وهو يبكى حتى علا نحيجه وهو يقول ويلٌ لعمر إن لم يغفر الله له، تجد الرجل كان يتخفى بهذا عن ولده وجاره، فالآن يقول رآنى أمير المؤمنين ونحو ذلك.

وجاء فى الخبر إذا دُعِيَ أحدكم إلى طعام فإن كان مفطراً فليُجب، وإن كان صائماً فليقل إنى صائم. فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وُجُداً أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك فى قلب أخيه، لتفضيل المؤمن وحرمة على الأعمال، إذ الأعمال موقوفة على العامل. وإنما يُعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيره فى العمل الواحد، فدل ذلك أن المؤمن أفضل من العمل، فقليل له أرفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك فهو خير لك من إخفاء العمل مع وجد أخيك عليك، لأن أخاك إذا دعاك إلى طعام صَنَعَهُ لك فلم تجبه ولم تعتذر إليه، عُدراً بيننا يقبله منك ويعرفه، شَقَّ عليه إن كان صادقاً فى دعائك، وبمعنى هذا من خَفَى الأعمال ما يحكى عن بعض السلف أنه كان يكون فى الجماعة فيقرأ فى نفسه سرّاً لئلا يطلع أعماله أحد، فإذا مرّ بآية فيها سجدة سَجَدَ بين الملائكة، فكنا نعرف بسجوده أنه يقرأ، فعمل فارغاً قليل الفقه يقول إن هذا قد أظهر عمله إذ فعل ما يدل عليه، فلو ترك السجود ليُخفى عمله كان أفضل، لأنه قد أظهر ما أخفاه، فهذا يدل على جهله بالمعاملة. وقد سمعت بعض العلماء يطعن على هذا بفعله بمعنى ما ذكرناه من القول. وهكذا يكون علم المريدين القصيرين العلم. وليس الأمر كما قدره هذا المنكر بسجوده، بل القائل المنكر لفعله قليل الفقه بدقائق الإخلاص جاهلٌ بطريقة العاملين من العارفين. والعامل الذى نقل عنه هذا الفعل فقيه مخلص، وذلك لأنه قد حاز الفضلين معاً، لأنه كان فاضلاً فيما أخفى إذ ابتدأ عمله بالخفية، فلما جاء السجود الذى لا يكون إلا ظاهراً لم يصلح أن يترك قربة إلى الله عز وجل من أجل الناس، فكان يسجد كما أمر به، ويقرأ كما نُذِبَ إليه، فصار فاضلاً فى الحال الثانى لأنه أظهر لأجل الله عز وجل، كما أخفى لأجله، ولأنه ترك مراقبة الناس ولم يترك عمله لأجلهم. ولو كان الفضل فى ترك السجود لإخفاء العمل كان الأفضل لمن دخل عليه فى منزله وهو يصلى أن يقعد لأجلهم. وقد وردت السنة فى ذلك أن له أجرين، أجر السر وأجر العلانية. كيف وقد كانوا يعدون أن الرياء ترك العمل لأجل الناس، فأما العمل لأجلهم فشرك. وقد قيل لا تعمل للرياء ولا تترك العمل للحياء، فالحياء من الخلق شرك كما أن الحياء من الخالق إيمان. وأيضا لو أنه أطاع العدو فى

ترك العمل لأجل الناس أطاعه مرة أخرى في العمل لأجلهم. ومثل هذا كمثل من كان يصوم ويصلى يومه أجمع في منزله لا يعلم به مخلوق، فلو نوى الاعتكاف ليضمه إلى صومه خرج إلى المسجد فكان يصلى مقيماً فيه فظهر الناسُ على عمله، فلم يكن ليدع ما نواه من العكوف في المسجد لأجل نظرهم إليه، ولم يضره ظهورُ عمله لثباته على نيته ولزيد الاعتكاف إذا كان عالماً متمكناً. وأيضا فإن الإمام المتمكّن المُقْتَدَى به لا يضره ظهور الناس على أعماله إذا لم يقصد ذلك ولم يحب منحهم. وربما كان له أجران في ذلك لتبنيه الغافلين عن الذكر وتشويق العاملين إلى البر. كيف وعند بعض العلماء أن سجود القرآن فرض، وأن عَلى مَنْ سَمِعَ آية سجدة أو تلاها وكان على غير وضوء أن يسجد لها إذا توحّساً. ونحو هذه المعاني ما هو حال للعبد وأولى به من حال غيره ما رواه أبو نصر التمار، أن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث وقال قد عزمت على الحج، أفتأمرنى بشيء، فقال له بشر كم أعددت للنفقة، قال ألفى درهم، قال فأي شيء تبتغي بحجك، نزهة أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله عز وجل؟ قال ابتغاء مرضاة الله عز وجل. قال فإن أصبت رضا الله وأنت في منزلك وتتفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله عز وجل أتفعل ذلك؟ قال نعم. قال اذهب فاعطها عشرة أنفس: مدين يقضى بها دينه، وفقير يرم شعته، ومُعِيل يُحْيِي عياله، ومُرَبِّي يَتِيم يُفْرِحُه. وإن قوى قلبك أن تعطيتها الواحد فافعل فإن إدخالك السرور على قلب امرئ مسلم، وتغِيث لهفان، وتكشف ضرر محتاج، وتعين رجلاً ضعيف اليقين، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام. قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك. فقال يا أبا نصر سفرى أقوى في قلبى، فتبسّم بشر وأقبل عليه. وقال له المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس إلى أن تقضى به وطراً يُشْرَعُ إليه، فظاهرت أعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين. وفي نحوه قيل لبشر أيضاً إن فلاناً الغنى كثير الصوم والصلاة، فقال المسكين ترك حاله وبخل في حال غيره. إنما حال هذا إطعام الطعام للجوع والإنفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه، ومن صلواته لنفسه، مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

وقد يكون اختفاء الأوجب من الفرائض والتباسة بالفضائل محنة من الله عز وجل لعباده وحكمة له فيهم، فيرتكبون التأويل للسعة، ويتركون الضيق لخفائه عليهم، لينفذ فيهم العلم، ويجرى عليهم الحكم، ويكون ذلك تاديباً لهم وتعريفاً، ومزيداً في التسليم وتوفيقاً. وقد قال الله تعالى فيما عتب على نبيه صلى الله عليه وسلم ووعظه وزجره في قوله تعالى عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى، يقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفتّم في عمره

كَفَّمَهُ حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ سُورَةَ عَبَسَ، لِأَنَّ فِيهَا عَتَبًا شَدِيدًا عَلَى مِثْلِهِ لِأَنَّهُ الْحَبِيبُ الرَّشِيدُ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقْصِدْهُ فِي الْخُطَابِ فَيَكُونُ أَيْسَرَ لِلْعَتَابِ، بَلْ كَشَفَ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَنَبَّهَ عَلَى فِعْلِهِ عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ، لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَيْ انظُرُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَوْ اعْبُدُوا إِلَى الَّذِي عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى، وَإِذَلِكَ رُويَ أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَلَّغَهُ أَنَّ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ قَوْمِهِ فَكَانَ لَا يَقْرَأُ بِهِمْ إِلَّا بِسُورَةِ عَبَسَ فَأَرْسَلَ فَضْرَبَ عُنُقَهُ، يَسْتَدِلُّ بِذَلِكَ عَلَى كُفْرِهِ لِيَضْعَعَ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ قَوْمِهِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ عَاتِبًا عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ، وَنَحْوَهُ لِمَ تَحْرَمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ، وَبِمَعْنَاهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَوْ كَتَمَ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ كَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ. وَمَنْ أَعْجَبَ مَا سَمِعْتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا حَدَّثُونَا فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ عَنْ وَهَبِ بْنِ مَنْبَةَ الْيَمَانِيِّ، أَنَّ سَلِيمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَمَّا قَبِضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَّفَ رِجَالًا مِنْ وَلَدِهِ يَعْمُرُونَ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ وَيَعْظَمُونَهُ بَرَهَةً مِنَ الدَّهْرِ، حَتَّى خَلَفَهُ بَعْدَهُمْ رَجُلٌ مِنْ وَدِّ سَلِيمَانَ فَخَالَفَ طَرِيقَةَ آبَائِهِ وَتَرَكَ شَرِيعَتَهُمْ وَتَكَبَّرَ فِي الْأَرْضِ وَطَغَى. وَقَالَ بَنِي جَدِي دَاوُدَ وَأَبِي سَلِيمَانَ مَسْجِدًا فَمَا لِي لَا أَبْنِي مَسْجِدًا مِثْلَ مَا بَنَوْا وَأَدْعُو النَّاسَ إِلَيَّ شَرِيعَتِي كَمَا دَعَا، فَبِنِي مَسْجِدًا يُضَاهِي بِهِ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ، وَأَدْعَى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِذَلِكَ، وَصَرَفَ النَّاسَ إِلَيْهِ وَبَذَلَ لَهُمُ الْأَمْوَالَ، وَأَخْرَبَ مَسْجِدَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَهَجَرَهُ، فَدَخَلَ النَّاسَ فِي دِينِهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً، قَالَ فَايْتَعَتْ اللَّهُ إِلَيْهِ نَبِيًّا مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْقُرَى، فَقَالَ ارْكَبْ أَتَانَكَ هَذِهِ وَأَتِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَحْفَلُ مَا يَكُونُونَ، فَنَادَى فِي مَسْجِدِهِمْ وَمَجْمَعِهِمْ بِأَعْلَى صَوْتِكَ، يَا مَسْجِدَ الضَّرَارِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلَّفَ بِاسْمِهِ لِيُوحِشَنَّكَ مِنْ عَمَارِكَ، وَلَيَقْتُلَنَّ أَهْلَكَ فِيكَ، وَلَيَشُدَّخَنَّهُمْ بِخَشْبِكَ وَجُنْدِكَ، وَأَتَلْفَنَ الْكَلَابُ دِمَاعَهُمْ وَتَأْكُلُ لِحُومَهُمْ فِيكَ. وَنَادَى فِي الْمَدِينَةِ بِأَعْلَى صَوْتِكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَلَا تَأْكُلْ وَلَا تَشْرَبْ، وَلَا تَسْتَظِلْ وَلَا تَنْزِلْ عَنْ أَتَانِكَ هَذِهِ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَيَّ قَرِيَّتِكَ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْهَا، قَالَ فَفَعَلَ ذَلِكَ فَثَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ يَضْرِبُونَهُ بِالْخَشْبِ وَيَشْجُونَهُ بِالْحِجَارَةِ وَهُوَ عَلَى أَتَانِهِ لَا يَنْزِلُ عَنْهَا، فَنَالَ عَلَى ذَلِكَ أذىً كَثِيرًا وَضَرْبًا عَظِيمًا، ثُمَّ كَرَّرَ رَاجِعًا فِي آخِرِ النَّهَارِ يَوْمَ قَرِيَّتِهِ الَّتِي خَرَجَ مِنْهَا، وَقَدْ أَدَّى الرَّسَالََةَ وَصَبَّرَ عَلَى الضَّرْبِ وَالْبَلَاءِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَلَمَّا كَانَ بِيَعُضِ الطَّرِيقِ سَمِعَ بِهِ نَبِيٌّ آخَرَ كَانَ فِي بَعْضِ الْقُرَى، فَاسْتَقْبَلَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ إِنَّكَ قَدْ أَدَيْتَ رِسَالَاتِي رَيْبًا، وَإِنَّكَ أَمْضَيْتَ أَمْرَهُ، وَإِنَّكَ قَدْ نَصَبْتَ وَلَقَيْتَ عَنَاءً مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ،

وَأنت جَانع عطشان تسيل دماؤك على جسدك وثيابك، فاغْدُ إلي منزلي فكلْ واشرب واسترخِ
واغسلْ جسدك وثيابك، فقال إنَّ الله عز وجل لما أرسلني قد كان عهداً إليّ أن لا أكل ولا أشرب
ولا أستظل حتى أرجع إلى أهلي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فإنني من أهلك لأنني نبي
مثلك وأخوك في الدين، فلا أرى الله عز وجل عني بذلك إلا القوم الذين بعثك إليهم لأنهم أعداؤه،
فنهاك أن تأكل من طعامهم وتستظل عندهم، ولا أحسب حرمً عليك دخول منزلي ولا الأكل من
طعامي لأنني شريك في الأخوة والنبوة، قال فصَدَّقَه وانصرف معه إلي منزله، فلما وضع
الطعام بين يديه وأهوى لياكل عن جوع شديد قد أضربَه أوحى الله عز وجل إلي ذلك النبي
الذي دعاه إلى منزله، قل له أثرت شهوتك ويطنك علي أمري. ألمْ أعهد إليك أن لا تنزل ولا تأكل
حتى ترجع إلى قريبك التي خرجت منها، ولولا أنك اجتهدت برأيك وقلت بمبلغ علمك لعمكما
العقاب، وهو أقل عندي عنرا منك لأنني عهدت إليه فآثر هواه وشهوته وترك عهدي، فأنخبره
النبي صلى الله عليه وسلم بما أمر، فوثب مذعوراً يجُرُّ إزاره، وجعل يرحل أتانَه ويُعجل ولا يعقل
ما هو فيه، فركبها طارداً لها على وجهه لجوعه وعطشه، وبمازه على ثيابه وجسده، لا ينتهي، فلما
هبط عن عقبة تحتها غَيضة عارضه سبعٌ فافترسه، وانتصب السبع مُقعياً علي قارعة الطريق
يزأر يحرس أتانَه ورَحْلَه، كلما أقبل إنسان زار عليه الأسد حتى يطرده، فسمع بخبره ذاك النبي،
فأقبل نحوه فلما نظر إليه الأسد انصرف عنه وخالى بينه وبينه، قال فَكَلَّمَنه وواراه وانصرف
بَرَحْلَه وأتانَه إلى أهله، فقال يارب عبدك هذا الذي بلَغ رسالتك وأمضي أمرك، وقد كان أجهده
البلاء فخالف ما أردت فلم يعلم، فعاقبته بهذه العقوبة، فوحى الله عز وجل إليه ليست هذه عقوبه
ولم أفعل ذلك لهوانه علي، ولكن هذه مغفرةٌ ورحمةٌ أنه خالف أمرى، وكان قد اقترب أجله فكرهت
له أن يلقاني على المخالفة فآلقاه بما يكره، فقيضت له كلباً من كلابي فطهره للقائي، فكان ذلك
له عندي شهادة ودرجة فوق نبوته، فقال سبحانهك وبحمدك أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.
فالعلماء مَنْ عِلِمَ خَيْرَ الْخَيْرِينَ، فسبق إليه قبل فوته، وعلم شرَّ الْخَيْرِينَ فأعرض عنه
لئلا يشغله عن الأخير منهما، وعلم أيضاً خَيْرَ الشَّرِّينَ ففعله إذا اضطرَّ إليه وأبتلى به، وعلم شرَّ
الشَّرِّينَ فأمنع في الهرب منه واحتجب بحجابين عنه. وفي هذه المعاني دقائق العلوم وغرائب
الفهوم، وأدلة للسائلين، وعبرةٌ وآياتٌ للعالمين، فإمَّا شرُّ الشَّرِّينَ ومعرفة الخير من الشر فهو
معروف بأدلة العقول وظاهر العلوم.